مقدمة

بقلم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

أحسنتَ فى نظمكَ ونقدك، كما أحسنت فى فكاهتكَ وجدك، وأرى أنكَ قد أبدعتَ فى الأدبِ العربىّ فنًّا من الشعر الناقدِ أو من النقدِ الشعرىِّ لم يسبقكَ إليه أحدٌ فى لغتنا، ولا أذكر أحداً سبقك إليه وأجادَ فيه من شعراء الغرب النابهين غير «لورد بيرون» فى القرن التاسع عشر، و«اسكندر بوب» فى القرن الثامن عشر، ولم يَلحق بهما من طرقَ هذا المجالَ على أسلوبٍ يذكرُ بينَ أساليبِ أمراء البيان.

على أن «بيرون وبوب» لم يكونا ناقدين فيما نظماه من القصيد، بل كانا مدافعين يردان هجمات النقادِ عليهما، وكانا أحيانا محاربينِ يهجمان على أصحابِ المذاهبِ المخالفةِ لهما بين الشعراء والأدباء: كتبت مجلة «بلاكوود» الأدبية فصولها عن ديوان «ساعات الفراغ» فاشتدّت عليه وسخرت منه، فأرادَ الشاعرُ أن ينتصف لنفسه، وأن يعلم النقاد أن عروس الشعر تحسن النضال فى ميدانه، ونظم قصيدته التى سماها: «الشعراء الإنجليز والصحفيين الأيقوسيين» فأوسع فيها النقادَ سخريةً وهجوا، وعرّج على نظرائه من شعراء عصره فقال فيهم مقاله، وأعمل فيهم لسانه وخياله،

وحسبها الأدباء يومئذ مثلا من أمثلة الردود الطريفة ، ولم يحسبوها فنا من فنون النقد أو ميزانا من موازين التمييز والتقدير .

وكذلك صنع « بوب » حين أنحى عليه نقاد عصره ، وخالفه النظراء فى مذهبه فإنه نظم شعراً ولم يكتب نثرا فى الدفاع عن أدبه ليثبت لناقديه أن سلاحَ الشاعر لا يقصر عن سلاح الناقد الناثر فى ميدانه ، وأرسل قصيدته إلى صديقه الطبيب الأديب «أربثنوت» يشرح مذهبه ويكيل الصاع صاعين لخصومه ومنافسيه ، وقيل عنه يومئذ إنه عرفهم بأقدارهم ، وأن لم يحمدْ له ميزانه فى تعريف الناس بتلك الاقدار .

لكنك أنت سلكت مسلك النقاد ، ولم تسلك مسلك المحاربين والأضداد ، ويجوز أن يوافقك الموافقون ، ويخالفك المخالفون ، ولكنها الموافقة والمخالفة فى الأذواق والآراء ، وليستا بالموافقة أو المخالفة فى الصداقة والعداء ، ولا فى المدح والهجاء ، وتلك فضيلة النقد على التجريح والأيذاء .

وإنى لأهنئكَ على قدرةٍ فى الشعرِ الرصين لم يرزقها الكثيرونَ ناثرين منطلقينَ من القيود والموازينِ ، فإن ضرورات النظم لم تنحرفْ بك قط عما اخترته من أسبابك ، وشواهدِ المزيةِ والمؤاخذة فى رأيك ، ولو تحدث المتحدث كلاما مرسلا بما عرفه

من حال شعرائك ومواضع نقدك وثنائك ، لما استطاع أن يجلو مقاصده فوق جلائك ولكنه كان خليقا أن يضيع على القراء ما حفظته لهم من فصاحة الكلام ، وحلاوة النغم ، وتناسق الفكر والبداهة ، وتجاوب الجد والفكاهة ، وعجيبة الجمع الموافق بين ملكة الشاعر وملكة الناقد وقلما يجتمعان .

وإن ملكة النقد لشيء نادر فى كل زمن ، وأنها ولا شك لأندر من ملكة الشعر وملكة البلاغة على إطلاقها ، لأن ملكات الشعر والبلاغة إحسان ، وملكة النقد إحسان ومعرفة بأسباب الإحسان، وقد ينبغ الشعراء فى عصور الحجر والطغيان ولا ينبغ الناقد فى عصر يحال فيه بين العقل واللسان ، لأن النقد تمييز واختيار ،ولا تمييز ولا اختيار حيث تحتجب الحرية ، ويسكت الأحرار .

وقد فقدنا ملكة النقد فى آدابنا العربية منذ ران الجمود على النفوس واستحكمت حلقات التقاليد والعادات ، وأصيبت العقول « بالقصور الذاتى » فلا يتغير الرأى عن موضعه إلا كما يتغير الحجر عن مقره ، ورأينا المؤرخين يكتبون عن عشرين شاعراً أو ناثراً فى عصر واحد فيقولون عن كل شاعر أو ناثر منهم : إنه وحيد زمانه وفريد عصره وأوانه ، ورأينا الشاعر يمدح ويرثى

ويردد مدحه ورثاءه فى العشرات ، بل فى المئات ، فلا يختلفون فى صفة ولا عمل ولا يتميزون بلمحة ولا علامة كأنها « أسطوانة » تعاد مع تبديل العنوان ، أو قالب يتكرر فلا تعتريه زيادة ولا نقصان ، بل رأينا القارئ المتحذلق ، كأنه الريفى الساذج ، يأتى من القرية ليسأل عن دكاكين « الماوردى ومدكور والجمال » كما كان أجداده يسألون عنهم قبل القرن العشرين ، فلا يزال قارئنا المتحذلق فى قصوره الذاتى — قصور الحجر فى مقره — يعيد السؤال عن أشباه « الماوردى ومدكور والجمال » فى عالم الأدب ثم يقلب كفيه ، ويحوم بعينيه ويحوقل بين شفتيه : لا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد ذهب الشعر والأسفاء ، وذهب الشعراء واحسرتاه ، لأنه لم يسمع بأذنى جده وأبيه ، وإنه لأجهل من جده وأبيه فيما وعته أذناه .

إنها لآية من آيات النهضة المرجوة أن يتبدل كل هذا ، وأن نرى تلك الآية فى ديوان كامل من الشعر الرائق ، بل فى كل صفحة من صفحات ذلك الديوان .

إنها لآية من آيات النهضة المرجوة أن تعرض لنا فى كل صفحة من صفحات شعرك الناقد صورة تدل على صاحبها ، ولا تدل على أحد سواه ، وأن نبصر فى كل صورة ملامح لها مستقلة بألوانها

وظلالها، وأن نرى من وراء ذلك نظرةً تميز بين الأشباه، وتفرق بين الأمثال، ويؤتى لها أن تؤدى ذلك بالبيان المتزن والنظم الموزون، وإنها لأعجوبة من أعاجيب الفن والجمال، جديرة على الأقل بأن تعلم السائلين السؤال عن محل جديد غير محل مدكور والماوردى والجمال ...

إنها مقدرة ليست بالجديدة منك، وإنما الجديد منها موضوعٌ لم تسبقْ إليه فى تاريخ الشعر العربى، ولا فى تاريخ النقد الفنىّ على جملته. فإذا أزجيت التهنئة بهذا الديوان مبتدئا فإنما أبدأ بتهنئة الأدب الحديث على فتح من فتوح النقد فى قالب الشعر لم يهنأ بمثله فيما سلفَ من محاسنه وآياته، وتتبعه أنت بحقك من تهنئات المعجبين بتوفيقك وارتقائك فى مراتب الإبداع والإحسان.

عباس محمود العقاد